وديع عواودة*

برحيله بكت إسرائيل على ذاتها

شمعون بيريس .. حمامة السلام الذي بنى ترسانة إسرائيل النووية

قال حيمي ابن رئيس إسرائيل الراحل شمعون بيريس إن والده من الآباء المؤسسين للدولة، خدمها على مدار ٧٠ عاماً، وهذا في الواقع سبّب انشغالها الكبير به، وتبجيله إلى حد الأسطرة والتقديس. لكنها تبدو كأنها تبكي على ذاتها لفقدانها الأب والأخ الكبير الذي شعرت معه وبقربه من مقود مسيرتها بالأمن والاطمئنان أكثر. بيريس هو من هؤلاء الذين تتطابق سيرهم الذاتية مع قيام إسرائيل منذ عملوا قبل نكبة ١٩٤٨ في صفوف الحركة الصهيونية. إنه بكاء ينم عن خوف غير معلن؛ لأنّ أوساطاً إسرائيلية واسعة ترى، بالتصريح والتلميح، أن سفينتهم الصهيونية لم تستقر في ميناء الأمان بعد، ومستقبلها ما زال يلفه الغموض ويواجه التهديدات الخارجية والداخلية على حد سواء. هذا أحد أهم أسباب تكريس الإعلام الإسرائيلي طاقاتٍ هائلةً لمتابعة مرض بيريس ورحيلة، حتى أن مقدمي البرامج التلفزيونية حرصوا على ارتداء السواد وإعلان الحداد كبقية الجهات والأوساط الرسمية مع إعلان نبأ الوفاة، وذلك رغم تجاوزه الثالثة والتسعين من عمره وعدم إشغاله أي منصب رسمي ساعة الرحيل.

محطات مركزية

بيريس رمز القدرة على التعبير والتلاعب باللغة وتطويعها، الذي كرّر مراتٍ قوله إنه كان يحلم بأن يكون راعياً أو شاعراً («هآرتس»– ١٦، ٧، ٢٠٠٧) شغل عدداً من المناصب الوزارية في الحكومات الإسرائيليّة المتعاقبة، أبرزها منصب رئيس الوزراء الذي وصل إليه مرتين، أُولاهما بعد اتفاق تناوب مع إسحاق شامير، رئيس

* كاتب وصحافي.

حزب «الليكود» في ١٩٨٤، وثانيتهما عندما عاد بيريس مجدداً إلى رئاسة الحكومة مدة عام تقريباً، بعد مقتل رئيس الحكومة الأسبق إسحاق رابين عام ١٩٩٥. بعدها مباشرة ترشّح للمنصب من جديد وخسر في الانتخابات المباشرة لرئاسة الحكومة في عام ١٩٩٦ أمام بنيامين نتنياهو بفارق ضئيل.

وشغل قبل ذلك منصب وزير الخارجية في حكومة رابين الأخيرة (١٩٩٢–١٩٩٥).

ترك بيريس بصماته على إسرائيل مبكراً، بل كان أحد بناتها كما ذكرنا، فهو مساعد رئيس حكومتها الأول دافيد بن غوريون، ولاحقاً المدير العام لوزارة الأمن في خمسينيات القرن الماضي. وقد لعب دوراً حاسماً في بناء المفاعل النووي في ديمونا بمساعدة فرنسا.

ولد بيريس عام ١٩٢٣ في مدينة فيشنييفه في بولندا، قبل أن يهاجر إلى إسرائيل عام ١٩٣٤. استهل حياته من خلال عصابات «الهاغاناه» الصهيونية (منظمة عسكرية صهيونية استيطانية أُسست في القدس عام ١٩٢٠، وهي نواة الجيش الإسرائيلي)، تجنّد في سن ٢٤ في قيادة «الهاغاناه» المسؤولة عن تنفيذ الكثير من الهجمات ضد الفلسطينيين خلال فترة الانتداب البريطاني لفلسطين قبل عام ١٩٤٨، وقد تولى عدّة مهمات خاصة، لاسيما في مجالات: القوة البشرية والمقتنيات العسكرية والبحوث الأمنية. في ١٩٤٩ عُيّن رئيساً للخدمات البحرية، وبعد حرب ١٩٤٨ شغل منصب رئيس بعثة وزارة الدفاع في الولايات المتحدة. في ١٩٥٢ عاد إلى إسرائيل وهو في سن ٢٩، فعيّنه بن غوريون قائم مقام، وفيما بعد مديراً عاماً لوزارة الدفاع. في ١٩٥٩، انتُخب للمرة الأولى عن حزب «مباي» عضواً في الكنيست (البرلمان) الإسرائيلي، وعُيّن نائباً لوزير الأمن آنذاك دافيد بن غوريون، وظل في منصبه هذا ست سنوات، حيث أقام الصناعة الجوية والصناعة الإلكترونية والنووية وسلطة تطوير الوسائل القتالية، فضلاً عن كونه مؤسس البرنامج النووي الإسرائيلي، كما أسلفنا. بقي بيريس عضواً في الكنيست مدة ٤٨ عاماً، وهي أطول فترة عضوية في تاريخ البرلمان، وعمل وزيراً في ١٢ حكومة. إذاً، فقد تولى رئاسة الحكومة مرتين (١٩٨٤–١٩٨٦ و١٩٩٥–١٩٩٦)، وشغل منصب نائب لوزير الأمن تحت قيادة بن غوريون (١٩٥٩–١٩٦٥)، وكان وزيراً للمالية (١٩٨٦–١٩٨٧)، ووزيراً للأمن (١٩٧٤–١٩٧٧ و١٩٩٥–١٩٩٦)، ووزيراً للخارجية (١٩٨٦–١٩٨٨ و٢٠٠١–٢٠٠٢). وخلال إشغاله منصب وزير الخارجية في حكومة إسحاق رابين الثانية، أدار بيريس عملية السلام مع الفلسطينيين، فقاد المفاوضات السرية التي أُجريت في أوسلو وانتهت بتوقيع اتفاق في مراسيم احتفالية عُقدت في البيت الأبيض في ١٣ أيلول ١٩٩٣. وفي ١٥ تموز ٢٠٠٧ أدّى شمعون بيريس القسم رئيسًا تاسعًا لدولة إسرائيل حتى ٢٤ تموز ٢٠١٤.

بيريس مع بن غوريون.

في ١٣ أيلول ٢٠١٦ نُقل إلى مستشفى تل هشومير في تل أبيب (وسط) بعد تعرضه لجلطة دماغية إلى أن تم الإعلان عن وفاته الأربعاء.

حمامة أم ثعلب

للمفارقة، فإن إصابة بيريس بجلطة دماغيّة جاءت في الذكرى الـ ٢٣ لتوقيع اتفاق أوسلو المصاب هو الآخر بحالة شللٍ تامٍّ منذ توقيعه. بخلاف ما يشاع، لاسيما بعد حيازته جائزة نوبل للسلام سويةً مع رابين وعرفات، فإن بيريس قدم بحراً من الكلام عن السلام مع الفلسطينيين والعرب و«قطرة» أفعال لأجله. فبدلاً من تنفيذ اتفاق الخليل، بعد تسلمه دفة الحكومة غداة اغتيال رابين في نهاية ١٩٩٥، آثر بيريس الصلح الداخلي بين الإسرائيليين على التسوية مع الفلسطينيين (هجاداه هسماليت ٢٠٠٧/١٠/٢٤). تكشفت توجهات بيريس الحقيقية حيال الشأن الفلسطيني العام غداة اغتيال رابين وتسلّمه رئاسة الحكومة، حيث امتنع عن الانسحاب من مدينة الخليل المتفق عليه ضمن اتفاق أوسلو. وكان هو من أصدر أوامره باغتيال المهندس يحيى عياش، القائد العسكري لحماس في الضفة الغربية وفي غزة، ما فتح الصراع النازف وأجّجه بقوة في منتصف تسعينيات القرن الماضي. ورغم محاولة تصوير ذاته كحمامة سلام مع الفلسطينيين ومع العرب، كان شريكاً في كثيرٍ من جرائم الحملات الإسرائيلية، وعلى رأسها مجزرة قانا الأولى خلال حملة (عناقيد الغضب) على لبنان في ١٩٩٦. وكان وزيراً في حكومة

ويعتبر بيريس من الآباء المؤسسين للمستوطنات التي تُعَدّ من أهم عقبات التسوية مع الفلسطينيين اليوم وفق مفهوم تسوية «الدولتين». عُرف بيريس بحديثه الحماسي المتكرر عن أهمية تحقيق السلام والوئام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، غير أنه ظل متمسكاً مثل باقي قادة إسرائيل باستمرار احتلال معظم الأراضي العربية، وفي مقدمتها القدس الشرقية التي دعا إلى المحافظة عليها عاصمةً موحدةً لإسرائيل.

إيهود أولمرت يوم شنت حرب لبنان الثانية في ٢٠٠٦ وارتكبت خلالها مجزرة قانا الثانية، ووزيراً في حكومة إيهود أولمرت يوم شنت عدوان «الرصاص المصبوب» على غزة نهاية ٢٠٠٨.

ويعتبر بيريس من الآباء المؤسسين للمستوطنات التي تُعَدّ من أهم عقبات التسوية مع الفلسطينيين اليوم وفق مفهوم تسوية «الدولتين». عُرف بيريس بحديثه الحماسي المتكرر عن أهمية تحقيق السلام والوئام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، غير أنه ظل متمسكاً مثل باقي قادة إسرائيل باستمرار احتلال معظم الأراضي العربية، وفي مقدمتها القدس الشرقية التي دعا إلى المحافظة عليها عاصمةً موحدةً لإسرائيل (موقع «واينت»– ١٧/١٢/٢٠٠٥). وقد حاز رابين والرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات وبيريس جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٤. وكان بيريس هو من حدد الفارق بين اليسار واليمين في إسرائيل من هذه الناحية بقوله لرئيس حكومة الليكود مناحم بيغن محتجاً على اجتياح بيروت عام ١٩٨٢ إن هناك كاميرات في لبنان، ما يعني أنه لم يكترث بالدم والقتل والتدمير، بل حرص على صورة إسرائيل في العالم.

دوره في زيادة قوة

كان بيريس، الذي عمل مطلع شبابه راعياً في مستوطنة ألوموت قضاء طبريا في شمال فلسطين المحتلة عام ٤٨، من المساهمين في تطوير إسرائيل من النواحي الأمنية والتكنولوجية والدبلوماسية طيلة عقود وعبر مناصب متنوعة، وقد كان مقربًا جدًا من رئيس حكومة إسرائيل الأول دافيد بن غوريون وابنه المدلل بالتبني والرعاية السياسية. أتقن بيريس، الذي لم يختلف كثيرًا في أفعاله عن اليمين، دور ثعلب السياسة ممن يُؤتيك من طرف اللسان «حلاوة» عن السلام وعن الشرق الأوسط الجديد. وعمل حتى مات وزيراً فعلياً للخارجية، وسوّق إسرائيل بكل ما فيها، خاصة في أوقات الأزمات والعزلة الدولية بقدراته التعبيرية الاستثنائية وبعلاقاته الواسعة في العالم، كما تجلى في جنازته التي بدت، من خلال مشاركة حشدٍ واسعٍ من الرؤساء والملوك والأُمراء، تظاهرة تأييد له ولإسرائيل.

غداة رحيله، كشف كاتب كتاب سيرته المؤرخ البروفيسور ميخائيل بار زوهر ميخائيل، بالتفصيل، عن كيف بنى بيريس أكبر أسرار قوة إسرائيل ومناعتها– المفاعل النووي لصناعة الأسلحة في ديمونا بغية تعزيز قوة إسرائيل عقب تأسيسها بعد نكبة فلسطين عام ٤٨ (ميخائيل بار زوهر: شمعون بيرس كطائر العنقاء). ويستذكر بار زوهر أن بيريس كان شابًا في الرابعة والعشرين من العمر عندما تجند للعمل في مقر «الهاغاناه» عام ١٩٤٧. في البداية تم تعيين بيريس مسؤولاً عن المشتريات في مقر «الهاغاناه»، حيث تعرّف تدريجياً على مبعوثي «الهاغاناه» الذين انتشروا في العالم من أجل شراء الأسلحة وتهريبها إلى اسرائيل، استعدادًا لاجتياح الجيوش العربية المتوقع. في تلك الأيام جرت كل عمليات الشراء بشكل سريّ، وبطرق غير تقليدية وغير قانونية. قام بيريس ورفاقه بشراء وتهريب الأسلحة– رشاشات، مدافع، مصفحات، بل حتى طائرات وسفن حربية– من الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية ودول أُوروبية. ويقول المؤرخ بار زوهر إن المجال الأمني استهوى بيريس الشاب، فأمضى ليالي طويلة وهو يدرس الوثائق والتقارير حول البحث عن أسلحة، ويرسل البرقيات إلى ممثليه في العالم. ويتابع مستحضراً ما يشبه الطرفة: «أحيانًا كان يبقى في المقر حتى بزوغ الفجر، وفي أحد الأيام عثر على بطاقة دفعها بن غوريون تحت زجاج على طاولته: شمعون، لا تنسَ إطفاء النور».

ساهم بيريس خلال رئاسته الدولة، ولاحقا رئاسة مركزٍ للسلام يحمل اسمه، في تطوير مشاريع تكنولوجية دقيقة، وبرز خلال كافة مناصبه دوره في تبييض وجه إسرائيل في العالم. وجاءت مشاركة

حرص بيريس في سنواته الأخيرة على بلورة صورته في ذاكرة الإسرائيليين والتاريخ، فبدأ بتعزيز مكانته في مركز التيار الصهيوني المركزي والتخلص من صبغة اليسار بانضمامه لحكومتي أريئيل شارون في ٢٠٠١ و٢٠٠٣ وزيراً للخارجية ونائبَ رئيس الحكومة، وقد لعب في الحكومتين دور المبيض لصفحة إسرائيل في العالم، إلى جانب حبه الزعامة والسلطة بأي ثمن.

رؤساء العالم في جنازته خير دليل على ذلك، وسبقتها أو رافقتها تصريحات بعضهم حوله، وهي الأُخرى تعكس أهمية دوره وخطورته. وفي ردود الفعل على وفاته، أشاد الرئيس الأمريكي باراك أوباما ببيريس «أحد الآباء المؤسسين لدولة اسرائيل، ورجل الدولة الذي اعتمد في التزامه من أجل الأمن والبحث عن السلام على قوته المعنوية الثابتة وتفاؤله الراسخ (موقع «والا»– ٢٠١٦/٩/٣٠). من جهته، أشاد الرئيس الامريكي السابق جورج بوش (الابن) بالتزام بيريس طوال حياته السلام والحرية. وقال الأمين العام للأُمم المتحدة بان كي مون إن بيريس كان يعمل «بلا كلل في السعي إلى السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين». وفي برلين نعى الرئيس الألماني يواكيم غاوك بيريس الذي «ترك أثراً في إسرائيل أكثر من أيّ سياسيٍّ آخر، وخدم بلده في وظائف عدة بمبادئ صلبة عندما يكون الأمر متعلقاً بأمن اسرائيل، وبإرادة قوية عندما يكون الأمر مرتبطاً بدفع عملية السلام مع الفلسطينيين قدماً» («هآرتس»– ٢٠١٦/٩/٣٠).

وهذا في الواقع أحد عوامل انشغال الإسرائيليين برحيله، فهم يخشون دلالات هذا الرحيل في مفترقٍ ربما يدفعهم إلى ناحيةٍ تثير مخاوفهم الشديدة. وبهذا الانفعال يعبرون بطريقةٍ غير مباشرةٍ عن قلقٍ دفينٍ كبيرٍ على مستقبلها، لاسيما أنّ تسريباتٍ نُسبت له في السنوات الأخيرة عكست تشاؤمه وقلقه العميق عليها. وفي تصريحاتٍ متكررةٍ منذ نهاية ولايته رئيساً لإسرائيل قبل عامين، أشار إلى الخطر المحدق بإسرائيل نتيجة عدم تقسيم البلاد في ظل التحولات الديموغرافية، مُنبهاً إلى أنّ تحوُّل الفلسطينيين إلى أغلبية يعني تحولها إلى جنوب أفريقيا ثانية، وعندها ستكون أمام حالين أحلاهما مر: إما أن تبقى ديمقراطية برئاسة حكومةٍ فلسطينيةٍ، أو يهوديةٍ وغير ديمقراطيةٍ تحكم فيها أقليةٌ تسيطر على الأغلبية؛ دولة عنصرية هي بمثابة جنوب أفريقيا التاريخية الثانية («يديعوت أحرونوت» ٢٠١٥/١/٤).

بيريس في ذاكرة الإسرائيليين

حرص بيريس في سنواته الأخيرة على بلورة صورته في ذاكرة الإسرائيليين والتاريخ، فبدأ بتعزيز مكانته في مركز التيار الصهيوني المركزي والتخلص من صبغة اليسار بانضمامه لحكومتي أريئيل شارون في ٢٠٠١ و٢٠٠٣ وزيراً للخارجية ونائبَ رئيس الحكومة، وقد لعب في الحكومتين دور المبيض لصفحة إسرائيل في العالم، إلى جانب حبه الزعامة والسلطة بأي ثمن. ويبدو أن براغماتيته المعهودة ساعدته على التحالف مع زعيم اليمين أريئيل شارون، ناهيك عن كون الأخير من أتباع حزب «مباي» في بداية طريقه السياسي. في ٢٠٠٥ تلقى بيريس ضربةً داخل حزبه بخسارته في الانتخابات الداخلية لانتخاب رئيس الحزب لصالح عمير بيرتس، فقدم استقالته في ٣٠ تشرين الثاني ٢٠٠٥، وما لبث أن انضم إلى الحزب الجديد «كاديما» الذي أسسه في تلك الفترة أريئيل شارون من أجل القيام بتنفيذ خطة فك الارتباط مع غزة، بعد صعوبات كثيرة واجهته داخل حزبه الليكود.

بعد غيبوبة شارون، قاد إيهود أولمرت حزب «كاديما» نحو الفوز بانتخابات ٢٠٠٦، وكان بيريس المرشح الثاني في القائمة، وما لبث أن عُين نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً لتطوير النقب والجليل والتعاون الإقليمي. ومهّد هذا التحالف مع اليمين من خلال شارون وأولمرت الطريق أمام بيريس ليُنتخب في ٢٠٠٧ رئيساً لإسرائيل، مُتوِّجاً مناصبه ومُحققاً رغبته في تثبيت مكانته في قلب الإجماع الصهيوني، وهي صورة اعتنى بها، وأحب أن تبقى في الذاكرة العامة للإسرائيليين حتى رحيله، ومن أجلها ملأ فمه بالماء حيال انتهاكات بنيامين نتنياهو لحقوق الفلسطينيين على طرفي الخط الأخضر وتهربه من المفاوضات مع السلطة الفلسطينية، وقد استذكر بعض المراقبين ذلك خلال الجدل حول مشاركة الممثلين العرب في جنازته.

لم يقدم بيريس للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل ما هو مختلف عن بقية زملائه في المؤسسة الحاكمة حتى عندما كان رئيساً للحكومة وللدولة ووزيراً في عدة وزارات. في الفترة التي ترأس فيها رابين حكومته الثانية (١٩٩٢ و١٩٩٥) شهد المواطنون العرب في إسرائيل تحسُّنًا ملحوظًا واضحًا من ناحية حقوقهم المدنية. لكنّ ذلك تم اضطراراً؛ لأن النواب العرب في الكنيست دعموا الائتلاف الحاكم من خارجه وحموه من السقوط، إذ شكلوا «كتلة مانعة».

الفلسطينيون في إسرائيل.. مواطنتهم ودورهم

حملت وسائل إعلامية وأوساط سياسية في إسرائيل على الفعاليات السياسية داخل أراضي ٤٨ لمقاطعتها مراسيم تشييع بيريس، وبلغت حدّ دعوة رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو إلى مقاطعة نواب «القائمة المشتركة». وتعتبر هذه الأوساط الإسرائيلية أن من واجب الفلسطينيين في إسرائيل، كونهم ينعمون بمواطنتها، المشاركة في حزنها ونحيبها على آخر مؤسسيها، لاسيما أنه «حمامة سلام» ومؤيد لمساواتهم.

قبيل رحيله بعدة أيام أعادت صحيفة «يديعوت أحرونوت» (٢٠١٦/٩/٢١) نشر ٨٩ حكمة نشرتها قبل سنوات بمناسبة بلوغه ٨٩ عاماً قبل سنوات، ومن هذه الحكم «المقولة» بأنّ «عرب إسرائيل» بمقدورهم أن يكونوا جسراً بين إسرائيل وجيرانها... علينا جميعاً ملقاة مسؤولية التحرك بروح وثيقة استقلال إسرائيل من أجل خلق مساواة ومكافحة الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين المواطنين اليهود والعرب». وكما هي الحال في موضوع السلام والتسوية مع الشعب الفلسطيني، كذلك بالنسبة للفلسطينيين في إسرائيل، فاقت أقوال بيريس المعسولة أفعاله بكثير. ردد بيريس مثل هذه الكلمات عن المساواة مرات ومرات منذ عقود، لكنّ الامتحان كان وما زال لا بسماع لسانه الحلو المعسول، بل بمعاينة ما فعلته يداه حيال فلسطينيي الداخل وكل الفلسطينيين في كل أماكن وجودهم منذ النكبة عام ١٩٤٨. على الأرض خسر بيريس الحكومة وهي بين يديه في انتخابات ١٩٩٦، التي انشقت بسببها الحركة الإسلامية إلى شمالية وجنوبية بعد نقاش حاد حول المشاركة فيها، وبعدما كان بيريس أول من أغلق مكاتب لجنة الإغاثة الإسلامية.

عاد بيريس إلى الواجهة وزيراً في حكومة إيهود باراك عام ١٩٩٩ التي أقدمت على قتل المتظاهرين من الفلسطينيين المواطنين في إسرائيل خلال هبّة الأقصى (أكتوبر ٢٠٠٠) باستخدام النار المفرطة. وهذا تكرار لما كان مع بيريس يوم شغل منصب وزير في حكومة رابين التي فتحت النار على المتظاهرين العرب في الداخل خلال يوم الأرض الأول في ٣٠ آذار ١٩٧٦.

إذًا، لم يتردد بيريس في المشاركة في حكومتي أريئيل شارون وتغطية جرائمهما بدءاً من ٢٠٠١ كوزير. قبل ذلك ساهم بعض النواب العرب في الكنيست (عُرف منهم عبد المالك دهامشة) في فشله في الانتخابات لرئاسة إسرائيل عام ٢٠٠٠ بتصويتهم لمنافسه موشيه قصاب الموجود حالياً في السجن بتهمة الاغتصاب. لكنّ بيريس عاد ليتسلّم المنصب رمزاً صهيونياً إسرائيلياً جامعاً في ٢٠٠٧ يوم انتُخب رئيساً لإسرائيل سبع سنوات انضمت إلى بقية السنوات العجاف بالنسبة للمواطنين الفلسطينيين، إذ لم تتبدل أحوالهم الحياتية وحقوقهم المدنية، رغم التصريحات المعسولة المتتالية من طرفه، مثلما أنّهم اليوم يستذكرون له أيضاً دوره في نكبة شعبهم منذ ١٩٤٨ (بيان رئيس المشتركة أيمن عودة ٢٠١٦/١٠/٤).

لم يقدم بيريس للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل ما هو مختلف عن بقية زملائه في المؤسسة الحاكمة حتى عندما كان رئيساً للحكومة وللدولة ووزيراً في عدة وزارات. في الفترة التي ترأس فيها رابين حكومته الثانية (١٩٩٢ و١٩٩٥) شهد المواطنون العرب في إسرائيل تحسُّنًا ملحوظًا واضحًا من ناحية حقوقهم المدنية. لكنّ ذلك تم اضطراراً؛ لأن النواب العرب في الكنيست (ثلاثة نواب من الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة: توفيق زياد وتمار جوجانسكي وهاشم محاميد ونائبَين من الحزب الديمقراطي العربي: عبد الوهاب دراوشة وطلب الصانع) دعموا الائتلاف الحاكم من خارجه وحموه من السقوط، إذ شكلوا «كتلة مانعة». وقتها ولاحقاً أُشيع كأنّ بيريس هو صاحب

عبّر فلسطينيو الداخل عن عدم ثقتهم في بيريس قبل رحيله منذ نحو ثلاثة عقود، وليس يوم الامتناع عن المشاركة في جنازته، فبعد «عناقيد الغضب» بشهرين قررت أوساط كثيرة من فلسطينيي الداخل الاحتجاج على المجزرة في قانا في ربيع ١٩٩٦ بالأرجل والامتناع عن المشاركة في الاقتراع في الانتخابات العامة في حزيران ١٩٩٦، رغم دعواتٍ مُلحّةٍ لمعظم قياداتهم السياسية.

الفكرة، لكن الحقيقة مغايرة، وتفيد بأن رابين هو صاحب القرار بالاعتماد على «الكتلة المانعة»، وقد انتدب عنه النائب موشيه شاحل للتفاوض مع توفيق زياد وعبد الوهاب دراوشة. وقتها لعبت منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة الراحل ياسر عرفات (أبو عمار) دوراً فعالاً وحاسماً خلف الكواليس رغبةً في المصادقة على اتفاق أوسلو، الذي كان في المرحلة النهائية من حياكته سراً، بل أكد عبد الوهاب دراوشة في حديث خاص لـ «مدار» أنّ عرفات ألحّ بمطالبته القيادات السياسية العربية في إسرائيل بالمشاركة في الانتخابات العامة في ١٩٩٢ للمساهمة في استعادة حزب العمل بقيادة رابين الحكم تمهيداً لتوقيع أُوسلو بعد عام.

ويقول عبد الوهاب دراوشة في هذا الصدد:

«التقيت بالرئيس عرفات ومحمود عباس (أبو مازن) في تونس قبيل انتخابات ١٩٩٢ عدة مرات وبعلم من رابين خدمة لفكرة المساهمة بإسقاط الليكود وإنجاح العمل». هكذا يستذكر دراوشة هذه الوقائع التي سبق أن نشر تفاصيلها في كتاب مذكراته، وفيها يشدد على عدم وجود أيّ صلةٍ لبيريس بتلك المفاوضات والتفاهمات وبالاتفاق على «الكتلة المانعة». ورغم كونه سياسياً صارمًا ومكسر عظام الفلسطينيين وقائد تهجير اللد والرملة في ١٩٤٨ وله بصمات مهمة على المشروع الصهيوني، فإنه يقال، في الأروقة الإسرائيلية، إنّ رابين احترم كلمته والتزم بها أكثر مما فعل بيريس، حتى في تعامله مع العرب المواطنين في إسرائيل، حيث طبق الاتفاق المذكور مع النواب العرب. ويتجلى الفارق بين من يعطيك من طرف اللسان حلاوة (بيريس) ومن يقول الإسرائيليون عنه إن لسانه وقلبه سيان (رابين) في بعض الأحداث التي يتذكرها دراوشة وغطتها الصحف.

عناقيد الغضب

عبّر فلسطينيو الداخل عن عدم ثقتهم في بيريس قبل رحيله منذ نحو ثلاثة عقود، وليس يوم الامتناع عن المشاركة في جنازته، فبعد «عناقيد الغضب» بشهرين قررت أوساط كثيرة من فلسطينيي الداخل الاحتجاج على المجزرة في قانا في ربيع ١٩٩٦ بالأرجل والامتناع عن المشاركة في الاقتراع في الانتخابات العامة في حزيران ١٩٩٦، رغم دعواتٍ مُلحّةٍ لمعظم قياداتهم السياسية. قبيل انتخابات ١٩٩٦ بنحو الشهرين قال بيريس («كل العرب»– ١٩٩٦/٤/٢٥): إنّ القيادات الفلسطينية في إسرائيل تزاود على ياسر عرفات بموقفها الرافض للدعوة إلى التصويت له، رغم أنّ البديل هو بنيامين نتنياهو قائد اليمين المتطرف. وقتها طار دراوشة إلى الأردن بشكل عاجلٍ وخاطب المواطنين العرب من خلال التلفزيون الأردني، وتمّ تجنيد مكبرات الصوت في المساجد للدعوة وإقناع العرب للخروج للتصويت. زادت هذه التوسلات نسبة التصويت العربي، لكن دون جدوى، فقد خسر في انتخاباتٍ مباشرةٍ وشخصيةٍ لنتنياهو بفارق ٣٠ ألف صوت فقط (٠,٥٪ من الأصوات– أقل من أصحاب حق الاقتراع في مدينة الناصرة وقتها). قبل ذلك، ومع دنوّ يوم الانتخابات زاد قلق بيريس من مثل هذا «العقاب»، ففي حديثٍ معه قبيل يوم الانتخابات حاول جاهداً مُستميتاً في حديث أجريتُه لصحيفة «كل العرب» الصادرة في الناصرة (١٩٩٦/٥/٢) إقناع المواطنين العرب بالتصويت له بقوله: «عرفات يتفهم أوضاع إسرائيل أكثر من بعض المرشحين العرب للكنيست، وأنا تفاجأت من موقفهم ولهجتهم، وإذا كانوا يرغبون في عودة الليكود إلى الحكم، فلا حديث لي معهم». وقتها كان قلقاً من صورته ومن وقوع حدثٍ أمنيٍّ يقلب دفة الانتخابات لصالح نتنياهو، وهو ما حصل، فلولا «مجزرة قانا» ربما كان المواطنون العرب سيمنحونه ما يكفيه من الأصوات للتغلب على نتنياهو.

أوباما ونتنياهو في التشييع.

عقاب لبيريس أم عقاب للذات؟

وبأسلوبه في استخدام الكلام المعسول، ورداً على سؤال حول إخلاء الخليل، قال: «سأبذل جهودي كي أفي بما وعدنا به، رغم مخاطر استمرار خروج انتحاريين لتفجير أنفسهم في تل أبيب». في ظل عدم القيام بهذا الإخلاء والوفاء، واتجاه بيريس نحو التصالح الإسرائيلي الداخلي بعد اغتيال رابين والصمت على الاحتلال وانتهاكات حكومة بنيامين نتنياهو في السنوات الأخيرة، يتبادر السؤال: هل كان ذلك السلوك السياسي لفلسطينيي الداخل عقاباً لبيريس أم عقاباً للذات؟ وهل كان فعلاً بمقدور فلسطينيي الداخل تغيير مسار الصراع الفلسطيني– الإسرائيلي بترجيح كفة بيريس في تلك الانتخابات؟ وهل كانوا أو مازالوا يملكون فرصةً محتملةً للتأثير على صناعة القرار في إسرائيل اليوم وغداً، أم أنّ هذا وهمٌ في ظلّ تغيُّراتٍ كثيرة ؟

جدل حول مقاطعة المشتركة لجنازة بيريس

لم يتوقف، بعد، الجدل في إسرائيل ولدى فلسطينيي الداخل حول عدم مشاركة ممثلين للسياسة العربية في جنازة بيريس، ورد رئيس القائمة العربية المشتركة في الكنيست النائب أيمن عودة على استمرار التحريض والجدل بهذا المضمار بحديثٍ مصوّر (٢٠١٦/١٠/٤) قال فيه إن فلسطينيي الداخل لا يقبلون بالهيمنة بالعنصرية وبالاستعلاء. جاء ذلك في ظل تناغم الإعلام مع المستوى السياسي في إسرائيل بالتحريض على المواطنين العرب ومحاولة شَيطنتهم، ووُظفت حتى النهاية مشاركة الرئيس الفلسطيني محمود عباس لاتهامهم بأنهم «كاثوليك أكثر من البابا».

وكانت آخر هذه المحاولات الرسمية تصريحات لوزير الأمن أفيغدور ليبرمان قال فيها (صفحته بالفيسبوك ٢٠١٦/١١/١٠) إنه سيعمل على منع عودة أيمن عودة إلى الكنيست لأنه رفض المشاركة بجنازة بيريس فيما قام بإحياء ذكرى الراحل ياسر عرفات في رام الله (١٠م١١/٢٠١٦).

وفي المقابل، يتضح أنّ الرئاسة الفلسطينية قد استشارت بعض القيادات السياسية العليا خارج القائمة المشتركة في الداخل، وبدورها أوصت بمشاركة الرئيس بالطقوس الجنائزية، فيما تحفظت هي على المشاركة بذاتها. كما نُقل عن الرئيس عباس غضبه لعدم استشارة «المشتركة» السلطة الفلسطينية بخصوص المشاركة بجنازة بيريس. وقالت صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية إن المقربين من الرئيس عباس رفضوا الانتقادات التي وُجهت إليه بسبب مشاركته في جنازة بيريس. وقال رئيس اللجنة الفلسطينية للتواصل مع المجتمع الإسرائيلي في منظمة التحرير الفلسطينية محمد المدني، الذي شارك هو أيضاً في الجنازة، إن مشاركة الرئيس عباس مهمة للوعي الإسرائيلي والرأي العام الدولي («هآرتس» ٢٠١٦/٩/٣٠)،

موضحاً أن الزيارة أرادت القول للجمهور الإسرائيلي إنّ عباس جدي في توجهه للعملية السلمية، وإن الكرة موجودة في الملعب الإسرائيلي. وأضاف المدني في حديثه لصحيفة «هآرتس» أن القيادة الفلسطينية تفهم أنّ المشاركة في الجنازة لن تقود إلى تغيير على المدى القصير، لكنها ستساعد في الجهود الدولية لدفع العملية السياسية. وقال مقربون من أبو مازن للصحيفة إنه كان من المهم لمحمود عباس نقل رسالة إلى المجتمع الإسرائيلي بأنه شريك في السلام. مع ذلك أعربوا عن خيبة أملهم لأنّ نتنياهو لم يذكره خلال خطابه. وقال رئيس لجنة متابعة العليا داخل أراضي ٤٨ محمد بركة لصحيفة «هآرتس»: «إنّ القائمة المشتركة وأعضاء الكنيست لم يشاركوا في الحداد القومي الإسرائيلي بسبب الشعور بالتمييز ونزع الشرعية وغياب المساواة التي يشعر بها المواطنون العرب نتيجة لسياسة الحكومة الإسرائيلية المتواصلة». وتابع مبرراً مشاركة عباس: «في المقابل، فإن مشاركة الرئيس عباس صحيحة كرئيس للشعب الفلسطيني بسبب المكانة الدولية ومشاركة قادة العالم». وعلى خلفية كل ذلك، كرّر رئيس «المشتركة « أيمن عودة رؤيته بالتأكيد أنَّ فلسطينيي الداخل يريدون البقاء في وطنهم والحفاظ على انتمائهم القومي ونيل المواطنة الكاملة والمساهمة بالتأثير على القرار السياسي من أجل السلام والمساواة. وتابع في شريط مسجل (المواقع الإلكترونية– ٢٠١٦/١٠/٢): «ولأننا نريد حقًّا المواطنة الكاملة، فمن الطبيعي أن لا نقبل بالهيمنة وبالعنصرية وبالاستعلاء.. خذوا بعض الأمثلة من هذه الهيمنة التي حدثت فقط في هذين اليومين: اليوم رأس السنة الهجرية ورأس السنة العبرية، فلماذا حيّا رئيس الدولة وكل أعضاء الكنيست من الأحزاب الصهيونية اليهود بمناسبة رأس السنة العبرية، مع تجاهل كامل للمسلمين بمناسبة رأس السنة الهجرية؟ بينما أنا بصفتي رئيساً للقائمة المشتركة حييت المسلمين وحييت اليهود. مثالٌ إضافيٌّ للهيمنة: في اللقاء التلفزيوني في القناة الثانية توجه إليّ أحد المعلقين بأننا نعيش في الماضي. أيّ هيمنةٍ هذه التي تجعل الحركة الصهيونية تنطلق بمشروع شموليّ مبنيّ على رواية من قبل ٢٠٠٠ عام، أما نحن فممنوع أن نتحدث عن الأمس القريب الذي عاشه آباؤنا الشخصيون، أبي أنا مثلاً؟

واهمون أو ماكرون

أمام اتساع الجدل لدى فلسطينيي الداخل حول الموضوع، ومحاولة أوساط فلسطينية مهادنة أو واهمة أو ماكرة في تأييدها للمشاركة في الجنازة، قدّم عودة مثالاً آخر للهيمنة الإسرائيلية بإشارته إلى الزعم بأنّ من لم يحضر الطقس القومي بوفاة بيريس يسيء للعلاقات اليهودية العربية، وتساءل: وماذا مع إحيائنا أحداث يوم القدس والأقصى (أكتوبر ٢٠٠٠) قبل أيام واستشهاد الشباب الثلاثة عشر الذين قُتلوا على يد الشرطة الإسرائيلية، وقررت لجنة تحقيق رسمية (لجنة أور) أنه لم يكن أي مبرر لقتلهم، فهل فكّر وزيرٌ بأن يعتذر ويطلب المشاركة بوضع الزهور على الأضرحة؟ وأضاف: «قبل أيام وقفت أمام أضرحة كل الشهداء واحداً واحداً، وذهبت مع زوجتي وأبنائنا الثلاثة لوضع الزهور على ضريح شقيق زوجتي الشهيد أسيل عاصلة...». كما استعرض عودة مساهمات بيريس الأمنية من بناء مفاعل ديمونا النووي ومشاركته في حكوماتٍ ارتكبت مجازر وفتحت النار على المواطنين العرب من كفر قاسم إلى هبة القدس والأقصى عام ٢٠٠٠، منوهاً أيضاً بصمته الكامل والمطبق عن عشرات القوانين العنصرية والتصريحات ضد فلسطينيي الداخل. وتابع: «لا أُقلّل من أهمية محاولة بيريس تسوية الصراع في أوسلو، بل إننا كأحزاب عربية أقنعنا الجمهور العربي بأن يُصوّت لبيريس في مواجهة نتنياهو عام ١٩٩٦ رغم المجزرة الرهيبة في قانا.

وهل شارك الإسرائيليون في تشييع عرفات؟

مع ذلك، برزت أصوات مناقضة للتيار المركزي في إسرائيل تفهّمت عدم مشاركة فلسطينيي الداخل بجنازة بيريس، من أبرزها صوت المؤرخ الإسرائيلي البروفسور شلومو زند الذي يُذكر الإسرائيليين بمقاطعتهم للرئيس الراحل ياسر عرفات. وفي مقال بعنوان «حكاية جنازة» («هآرتس»– ٢٠١٦/١٠/١٣) يستذكر المؤرخ المحاضر في جامعة تل أبيب جنازة الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات في القاهرة في ٢٠٠٤ بعدما توفي في ظروفٍ غامضة. ويشير إلى أنّ القاهرة شهدت وقتها مراسم وداع رسمية، شارك فيها ممثلو ٥٠ دولة من المؤيدين والخصوم. وسار خلف نعشه الرئيس المصري حسني مبارك، والرئيس السوري بشار الأسد، وملك الأردن عبدالله، وملك المغرب محمد السادس، والرئيسان التونسي والسوداني ورؤساء حكومات السويد والبرازيل وتركيا وماليزيا والباكستان وآخرون كثر جدًّا. وتابع القول: «كانت جنازة وداعية مثيرة بشكلٍ أقل من جنازة بيريس، لكنها كانت محترمة جداً بالنسبة لرئيس بدون دولة. الولايات المتحدة، الوسيط المحايد المعروف بين إسرائيل وفلسطين، أرسلت مندوباً صغيراً: وليام بيرنز، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. أما إسرائيل، فأرسلت الإصبع الوسطى». ونبه زند، المؤرخ الذي وضع كتباً مهمة، منها: «اختراع الشعب اليهودي» إلى عدم مشاركة أي مندوب إسرائيلي بدرجة عالية أو

وبخلاف الإجماع الإسرائيلي، يؤكد زند أن بيريس كان يعبر بشكل واضح عن الصورة الذاتية لليسار المتعجرف، أو بدقةٍ أكثر، كان خلاصةً سياسيةً واضحةً للخداع الذاتي. ويقول إن بيريس هو حامل عتاد دافيد بن غوريون، وساعده على تنظيم الهجوم الفاشل في ١٩٥٦ (العدوان الثلاثي على مصر) والمرشد الأيديولوجي الذي دعم الحكم العسكري حتى النهاية، حتى عندما عارضه مناحيم بيغن، والمتآمر الذي صادق على إنشاء المستوطنات في قلب الضفة الغربية فقط لكي يمس بإسحاق رابين.

منخفضة، أو حتى متدنية، في الجنازة. كما لم يحلم أي زعيم من قادة المعارضة الإسرائيلية بالمشاركة في تكريم زعيم الشعب الفلسطيني، الذي كان أول من اعترف بدولة إسرائيل ووقع معها على اتفاق أوسلو. ويمضي في وضع الإسرائيليين أمام مرآة طالما تهربوا منها. وأضاف: «لم يكلف شمعون بيريس ولا إيهود باراك ولا شلومو بن عامي ولا حتى عوزي برعام أنفسهم للمشاركة في حزن الفلسطينيين. بعضهم صافح يده في الماضي، وبعضهم احتضنه بتأثرٍ قبل سنوات من وفاته. ولكن، منذ اندلاع الانتفاضة الثانية، أُعيد تصنيفه كمخرب شيطاني».

وبلهجةٍ ساخرة ناقدة يقول زند إنّ محللي اليسار «المتعقل والمعتدل» كرروا الادعاء في مقالاتٍ كثيرةٍ أنه ليس شريكاً ولا يُوجد من يحاورونه، وإنه عندما تم نقل جثمان الرئيس إلى رام الله، وصل إلى الجنازة إسرائيليون «متطرفون» وهامشيون، مثل أُوري أفنيري ومحمد بركة. كما يقول إنه لم يكن كل أنصار السلام في إسرائيل في حاجةٍ إلى انتظار عرض فيلم «حراس العتبة» في عام ٢٠١٢، أي تصوير اعترافات كل قادة جهاز المخابرات العامة «الشاباك» تقريباً بأنهم كانوا يعرفون في الوقت الحقيقي أن عرفات لم يدفع ولم ينظم ولم يبادر إلى الهبة الجماهيرية في الانتفاضة الثانية، ولا أعمال «الإرهاب» التي رافقتها. لقد انضم الزعيم بدون مفرٍّ آخر إلى الموجة، لأنه كان سيفقد هيبته ومكانته. ويؤكد زند أن خيبة الأمل من الخطوة الدبلوماسية التي لم يسبقها التحضير، والمهووسة تماماً، التي قام بها باراك في كامب ديفيد، واقتحام شارون الحرم القدسي، كانتا السببين الرئيسين لاندلاع المقاومة الفلسطينية غير المسيطر عليها.

وبلهجة استخفافٍ، يوضح زند أن كل الذين يتساءلون اليوم لماذا كان من الصعب على الممثلين السياسيين للفلسطينيين في إسرائيل تقديم الاحترام الأخير لشمعون بيريس، يجب عليهم أن يتذكروا جنازة عرفات و«الاحترام» الذي قدمه له الإسرائيليون.

بيريس مع شارون.

وفي محاولة استباقية ذكية، يتابع زند: «سيقولون لي، طبعاً، ما هي العلاقة بين الجنازتين. في الحالة الأولى كان إرهابياً مقيتاً، وفي الحالة الثانية محارب سلام لا يعرف الهوادة. في الأولى هو سياسي خبيث كالثعبان، وفي الثانية زعيمٌ كبيرٌ بين قلةٍ غيّروا التاريخ. في الأولى متآمر بلا هوادة على السلام، وفي الثانية شخصية تذكر بنلسون مانديلا. كيف تسمح لنفسك بالمقارنة؟..هكذا سيرد القراء في التعقيبات». وبرؤيته التاريخية يستحضر مقولة فرنسية، موضحاً أن نابليون بونابرت قام في زمنه بتعريف التاريخ كقناعٍ من الأكاذيب المقبولة على الجميع، ويسقطها على السياسة في إسرائيل. ويضيف مناقشاً: «حتى وإن كانت هذه المقولة لا تسري بالضرورة على كل التاريخ، فإنه لا شك في أنها تصيب بشكل جيد كل تاريخ قومي. كما أنها تتفق بشكل مدهش مع شكل رؤية الماضي في إسرائيل ٢٠١٦».

وبخلاف الإجماع الإسرائيلي، يؤكد زند أن بيريس كان يعبر بشكل واضح عن الصورة الذاتية لليسار المتعجرف، أو بدقةٍ أكثر، كان

خلاصةً سياسيةً واضحةً للخداع الذاتي. ويقول إن بيريس هو حامل عتاد دافيد بن غوريون، وساعده على تنظيم الهجوم الفاشل في ١٩٥٦ (العدوان الثلاثي على مصر) والمرشد الأيديولوجي الذي دعم الحكم العسكري حتى النهاية، حتى عندما عارضه مناحيم بيغن، والمتآمر الذي صادق على إنشاء المستوطنات في قلب الضفة الغربية فقط لكي يمس بإسحاق رابين، والسياسي الطموح الذي تحول إلى أفضل شرطي في حكومة إسحاق شامير وحكومة أريئيل شارون– أنهى حياته كرئيسٍ يمنح الرعاية والمبررات لسياسة بنيامين نتنياهو. ويخلص إلى القول: «لا شك أنه قام بدوره النفعي الانتهازي بشكل رائع، وهكذا ارتقى وارتقى حتى وصل إلى القمة، أما نحن فتركنا في الأسفل». وبذلك يلتقي زند مع ما قاله وزير التعليم الإسرائيلي الراحل يوسي سريد الذي قال مرة إن الله حينما وزع الأنانية على البشر منح بيريس نصفها (كتاب يهوشع بن بورات: أحاديث مع يوسي سريد، ٢٠٠٣).

تمرّد على الرواية الصهيونية

وبعيداً عن القبيلة الإسرائيلية المجتمعة متحدةً حول الموقد الصهيوني سجلت صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية موقفاً مماثلاً في شجاعته في افتتاحيتها الرئيسة (٢٠١٦/١٠/٥) مؤكدةً أن قرار نواب القائمة المشتركة التغيب عن جنازة شمعون بيريس حدّد معنى سياسيًّا مغزاه كبير، داعية إسرائيل إلى تغيير سياساتها وتوجهاتها حيال المواطنين العرب فيها. وقالت «هآرتس» إن قيادة فلسطينيي الداخل تمردت على الرواية الصهيونية الغالبية التي تتبناها الأغلبية والتي تتجاهل تاريخ ومشاعر الأقلية. وقد أظهرت هذه القيادة استقلاليةً مزدوجةً أمام الرسمية الإسرائيلية التي مثلها بيريس وأمام الرئيس الفلسطيني محمود عباس، الذي شارك في الجنازة. وقالت الصحيفة، من جملة ما قالته، إن الاعتراف بوجود روايةٍ إسرائيليةٍ مقابلة، في مركزها ارتكاب الغالبية لأعمالٍ غير أخلاقية بحق الأقلية، يمكنه فقط أن يشكل قاعدةً للمواطنة المشتركة والدمج الحقيقي. وخلصت إلى التأكيد على أن التاريخ اليهودي يعلمنا أن الشعوب لا تتنازل بسهولةٍ عن روايتها، حتى أمام الإغراءات والملاحقة. ونوهت بأن هذا التحدي مطروح الآن على عتبة السياسيين اليهود الذين يحلمون باستبدال سلطة اليمين ووقف انحدار إسرائيل نحو المنزلق الديني– القومي، وأن هدفهم لن يتحقق من دون التعاون مع القائمة المشتركة وناخبيها. وبدلاً من الوقوف الفوري إلى جانب نتنياهو واليمين المتطرف ومهاجمة النواب العرب، على هؤلاء السياسيين العثور على طرق تقود إلى قلوب المواطنين العرب.

المصادر

- بار زوهر، ميخائيل، ٢٠٠٥. شمعون بيرس كطائر العنقاء. تل أبيب: دار النشر «يديعوت أحرونوت».
- بن بورات، يهوشع، ٢٠٠٣. أحاديث مع يوسي سريد. تل أبيب: دار النشر سفريات هبوعليم».
- دراوشة، عبد الوهاب، ٢٠٠٩. مذكرات عبد الوهاب دراوشة. الناصرة.
- مواقع إلكترونية للكنيست والوزارات والصحف ومواقع إخبارية:

1. /http://main.knesset.gov.il
2. /http://www.cbs.gov.il
3. /http://www.pmo.gov.il
4. /http://www.haaretz.co.il
5. /http://www.walla.co.il
6. /http://www.ynet.co.il
7. www.mod.gov.il
8. www.alarab.com